﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَـْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

هنا عرضٌ فسيحٌ يُفْصِحُ عن مدى لجاج اليهود أمام الله ورسوله، تمحّلاً للمعاذير الواهية المهينة في أمرٍ كان لصالحهم، وقد تساءلوا موسى عنه، وهو قصة القتل التي خلقت فيهم جوّاً من الحجاج واللجاج.

كلٌّ من قبيلي النزاع يتهم الآخر، مما يكاد يولِّع نيران الحرب بينهم،

وكما ورد في الأثر[١] المؤيَّد بملامح آيات القصة: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ

(١) البحار ١٣: ٢٥٩ عن تفسير القمي أبي عن ابن أبي عمير عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رجلاً من خيار بني إسرائيل وعلمائهم خطب امرأة منهم، فأنعمت له، وخطبها ابن عمٍّ لذلك الرجل وكان فاسقاً رديئاً فلم ينعموا له، فحسد ابن عمه الذي أنعموا له فقعد له فقتله غيلة ثم حمله إلى موسى عليه السلام فقال: يا نبي الله هذا ابن عمي فقد قُتل، فقال موسى عليه السلام: من قتله؟ قال: لا أدري، وكان القتل في بني إسرائيل عظيماً جداً فعظُم ذلك على موسى فاجتمع إليه بنو إسرائيل فقالوا: ما ترى يا نبي الله؟ وكان في بني إسرائيل رجل له بقرة وكان له ابن بارّ كان عند ابنه سلعة فجاء قوم يطلبون سلعته وكان مفتاح بيته تحت رأسه وكان نائماً، وكره ابنه أن ينبهّه وينغص عليه نومه: فانصرف القوم فلم يشتروا سلعته، فلما انتبه أبوه قال له: يا بني، ماذا صنعت في سلعتك؟ قال: هي قائمة لم أبعها إن المفتاح كان تحت رأسك فكرهت أن أنبهك وأنغص عليك نومك، قال له أبوه: قد جعلت هذه البقرة لك عوضاً عما فاتك من ربح سلعتك، وشكر الله لابنه، ما فعل بأبيه، وأمر موسى بني إسرائيل أن يذبحوا تلك البقرة بعينها، فلما اجتمعوا إلى موسى وبكوا وضجوا قال لهم موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ فتعجبوا وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ نأتيك بقتيل فتقول: اذبحوا بقرة! فقال لهم موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البَقَرَة: ٦٧] فعلموا أنهم أخطأوا فقالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ﴾ [البَقَرَة: ٦٨] والفارض التي ضربها الفحل ولم تحمل، والبكر التي لم يضربها الفحل، فقالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ [البَقَرَة: ٦٩] أي شديدة الصفرة ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٦٩] إليها ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَاۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ ٧١﴾ [البقرة: ٧٠-٧١] أي لم تذلّل ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ أي لا تسقي الزرع ﴿مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ أي لا نقطة فيها إلّا الصفرة ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [البَقَرَة: ٧١] هي بقرة فلان فذهبوا ليشتروها فقال: لا أبيعها إلّا بملء جلدها ذهباً فرجعوا إلى موسى عليه السلام فأخبروه فقال لهم موسى: لا بدّ لكم من ذبحها بعينها، فاشتروها بملء جلدها ذهباً فذبحوها، ثم قالوا: يا نبي الله، تأمرنا؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: قل لهم اضربوه ببعضها وقولوا من قتلك؟ فأخذوا الذنب فضربوه وقالوا: من قتلك يا فلان؟ فقال: فلان ابن فلان ابن عمي الذي جاء به، وهو قوله: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٧٣﴾[1].

ندرس في قصة البقرة - القصيرة - آماد الحمق والعناد في العمق لهؤلاء الأباقرة العباقرة! وكم بقروا: كلًّا في بصائرهم الكليلة العليلة في العقلية الإنسانية، مهما بقروا: شقاً للمسالك الحيوانية الشهوانية، فهم في الروحية الإنسانية في أسفل سافلين، وفي الترسُّلات الحيوانية والسياسات المادية في أعلى عليين!.

هنا السمات الرئيسية للطبيعة الإسرائيلية، والوصمات النكدة النكبة، تبدو واضحة وَضْحَ النهار في هذه القصة، من مدى انقطاع الصِّلة بين قلوبهم المقلوبة وبين مقلِّب القلوب، انقطاعاً عن نبعة الحياة الروحية الشفافة الرَّقْراقة، واتِّصالاً طليقاً حليقاً بالمظاهر المادية، لحدٍّ قد يسبقون الماديين في دورهم الدائر وحورهم الحائر حول المادة والحيوية الحيوانية الشرسة.

ولقد سُمِّيت سورة البقرة بها بمناسبة قصة البقرة، وهؤلاء الأباقرة فيما تقصه عنهم في هذه المجالة وسائر المجالات المعروضة فيها، عرضاً لحمقهم في عمقهم لحدٍّ قد تُهان البقرة في تمثيلهم بها وعبادتهم إياها!.

وترى كيف يُلفت عن خطاب الحاضر لهم - فيما سبق هنا من خطابات - إلى عرض غائب في تقاولاتهم هذه، ثم نقلةً إلى خطابهم عرضاً لمادة القصة المقدمة عليها: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ وهي أحرى أن تقدَّم بطبيعة الحال التسلسلية؟.

علَّه لأن القصة غير مذكورة في التوراة زمن نزول القرآن كما الحاضرة، فليعرضوا غُيَّباً فيها، ومن ثم - وبعد تثبيت القصة - يأتي دور العرض لقتلهم

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

نفساً وتدارؤهم فيها، ولها إشارة في التوراة[١] تلفيقاً دقيقاً رفيقاً للواقع المغفول عنه بالواقع المشار إليه فيها وليذكّروا ماضيهم فيعرفوا من هم؟.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

يقولها لهم موسى لمّا راجعوه بشأن القتيل المجهول أمره ليوضِّح لهم، وإذا هم بأمرٍ لا يُناسب في قياسهم سؤلَهم وسؤالهم، وهو في نفس الوقت هتكٌ لما يحترمونه من البقرة لحدّ عبدوها لفترة، بل ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾[٢] ثم إذا كانت هناك صلة فلتكن إحياء الميت بذبح البقرة وذلك هو أبعد البعد صلة بأمرهم! فكيف - إذاً - يذبحون بقرة؟ ولا تمتُّ بصلة قريبة ولا بعيدة لمعرفة القاتل، أم كيف يُعرف القاتل بقتلٍ آخر!

لكنهم تناسوا الحكمة الربانية الخفية في أوامره، الجليلة في تطبيقاتها، كما جربوها ردحاً بعيداً من الزمن، فتثاقلوا في الائتمار، واثَّاقلوا في الحوار، فراراً عما أمروا به إلى سواه، بسيِّئ الأدب مع الله ورسوله في أصل الأمر وفصله، ولكنهم في نهاية الأمر ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ بعد

(١) في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التثنية: (١) «إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعاً في الحقل لا يعلم من قتله (٢) يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل (٣) فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تُجرّ بالنير (٤) وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى وادي دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي (٥) ثم يتقدم الكهنة بنو لاوي لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب حسب قولهم تكون كلّ خصومة وكلّ ضربة (٦) ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة لمكسورة العنق في الوادي (٧) ويصرحون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر (٨) اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريّ في وسط شعبك إسرائيل. فيغفر لهم الدم فتنزع الدم البريّ من وسطك إذا عملت الصالح في عيني الرب.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

ما تحمَّلوا مواصفات زائدة في «بقرة» ما كانت عليهم لو ائتمروا من فورهم دون تعنُّت وتساؤل!

الأمر الأول لم يحمل إلّا «بقرة» طليقة عن كلِّ صفة إلّا كونها «بقرة» ثمينةً أو رخيصةً، فارِضاً أم بكراً أم عواناً، صفراء أم سوداء أم بيضاءَ أم عواناً، فقد كانت تكفيهم في البداية - حسب طليق الأمر - أيّة بقرة.

وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «... ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شدَّدوا فشدّد الله عليهم»[1].

يقول لهم موسى الرسول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ فيردون عليه ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ ويكأن الله يهزأ بعباده عن جهالة، أو أن رسول الله يفتري على الله ما فيه جهالة!.

﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ في ذلك الأمر الإمر، البعيد عن تحقيق سؤلنا، ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ في نقل الأمر افتراءً، وهو من أجهل الجهالة، أم في نفس الأمر أن يحمل أمر الله بما أحمله جهالة الاستهزاء!.

هنا نتبيّن أن الهُزء من الجهالة، وطبعاً إذا كان بدائياً ومن جاهل، وفي حالة الهجمة، وأما الجزاء الوفاق من المجازي الحق دفاعاً عن الحق فليس

(١) الدر المنثور ١: ٧٧ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: لولا أن بني إسرائيل قالوا: وإنا أن شاء الله لمهتدون - ما أعطوا أبداً لو أنهم... أقول: وقد رويت عنه ﷺ بألفاظ مختلفة، المتفق عليه فيها إطلاق الأمر وأجزاء أية بقرة، ولكنهم لما شردوا شرد الله عليهم، مما يلائم ظاهر الأمر الطليق في الآية، وهنا عشرة كاملة من الأحاديث تحمل تدرج الأمر في قيود المأمور به وقد رواها أبو هريرة وعكرمة وابن جريح وقتادة وابن عباس عن النبي ﷺ والبزنطي ومقاتل بن مقاتل ومحمد بن عبيدة عن الرضا عليه السلام وعلي بن يقطين عن موسى بن جعفر عليه السلام وابن طاوس عن الباقر عليه السلام وهي كلّها موافقة لظاهر القرآن في ذلك فلا يصغى إلى قيلة القائل إن المأمور به كان مقيداً من أوّل الأمر، لا سيّما وأن قوله: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨] أمر حال بإتيانه ولمّا تذكر سائر المواصفات التالية، ولو كان كما قيل لكان أمراً بالمحال أن يأتوا بما لم يتبين بعد قيوده!

من الجهل، وكما في نوح عليه السلام: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[1] وكما الله ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾[2].

فالهزءُ والسخرية البادئة هما من الجهالة وسوء الصنيعة، وقد نهي عن الاستهزاء في (٣٣) آية، وفي عديدة أخرى عن السخرية، مما يبيّن لنا مبدئياً أنها من المحرمات الناتجة عن الجهالة القاصدة المقصرة، وأما القاصرة فلا تكليف فيها ولا تنديد.

ففيمَ تهزأ بإنسان؟ أفي نقصٍ من خلقه في مقياسك؟ وليس إلّا من خلق الله، فلا تهزأ - إذاً - إلّا بالله، وهذه جهالة بالله!.

أم في نقصٍ قاصر من فعلٍ أو تركٍ؟ فكيف يُهزأُ بقاصرٍ وليس مكلفاً في أيٍّ من الأعراف!.

أم في نقصٍ مقصرٍ؟ إذاً فهو مريض بحاجة إلى تمريض، ولا يزيده هزؤك به إلّا مرضاً إلى مرض، وعليك أن تكون له طبيباً إن استطعت، أم تأتي له بطبيب يداويه، أم تتركه وحاله، لا له ولا عليه إن لم تستطع في علاجه.

أم لأنك تظنك على كمال هو فاقده؟ فكذلك الأمر، وليس ظنك صائباً على أية حال!: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[3] وحتى إذا كانوا خيراً منهم ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[4]!

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٨.
(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١١.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١١.

فلا مجال للسخرية والهزء إلّا بمن يسخر بالحق بدلاً عن الانتباه، هزءاً عن مصدر العلم والحكمة دون أية جهالة بالله، أم جهالة بالأعراف الشخصية والجماعية، أو الواجبات الدعائية، وهنا السخرية لها مجال اعتداءً بالمثل، وصداً عن نشوب الباطل بين أهل الحق.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ هو عوذٌ بالله في بعديه، بالله الذي أمره أن يقول لهم: «اذبحوا بقرة» فلا يجهل أمر الله، والله الذي يعصم رسوله عن الجهالة فلا يجهل في رسالة الله، وهم عارفون أنه رسول الله، القائل قوله عن الله، وهم يتهمونه بهذه الجهالة الفاتكة لاستبعادهم - في قياسهم المتهوس المركوس وعقليتهم الحيوانية - ألّا صلة لذبح بقرة باتِّضاح أمر القتيل، وقد اتَّضح أخيراً، إضافة إلى بيان الواقع من إحياء الموتى، وجزاء الولد البارّ بأبيه في قصة البقرة.

لقد كان في ذلك التوجيه الوجيه كفاية لهم أن يثوبوا إلى أنفسهم، ويتوبوا إلى ربهم، تنفيذاً لأمره لصالحهم في المبدأ والمصير، أمراً كان لهم من السهل اليسير، ولكنهم بدلوه بالأمر العسير، أمراً واحداً طليقاً يتبدل في تساؤلاتهم المتعنتة بأوامر عدة لا تنطبق إلّا على بقرة يتيمة منقطعة النظير، وهم لا بدَّ لهم من تطبيقه حسماً لمادة النزاع في «من هو القاتل»؟.

وهنا ندرس دراسات أصلية أصولية على أضواء هذه الآية الطليقة، المقيدة بعدُ بما تقيدوا.

١ - لا يجوز تقييد المطلق بسناد الاستغراب أو الاحتياط أو أنه القدر المتيقن أمّا هي من تقييدات لا سناد لها إلّا تخيلات لا حجة فيها، اللّهم إلّا قيوداً عفوية من قبل الشارع نفسه، في كتاب أو سنَّة قاطعة، وقد كانت في «اذبحوا بقرة» منفية، فلما تعنتوا في التساؤل وشدّدوا شدّد الله عليهم جزاءً وفاقاً.

٢ - كما أن إطلاق المقيد بدليل محظور، كذلك تقييد الإطلاق دون

دليل محظور، فإنهما تخلف عن ظاهر الدليل أو نصه، ومشاقة مع الشارع في التشريع.

٣ - تقييد الإطلاق - وهو في مقام البيان - هو تجهيل للمطلق كأنه قصَّر في بيانه ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟ إذاً فهو محظور عقائدي بجنب المحظور العلمي.

٤ - وحتى إذا لم يتبين قطعاً أن المطلق في مقام بيان كامل مراده، فظاهر الحال يقتضي التماشي مع الإطلاق حتى يتبين له قيد أو قيود، فإن كانت قبل وقت العمل فتقييدُ تبيين، وإن كانت بعده فنسخٌ قَدَرَه.

٥ - وهنا نرى تعاضل الأمر - بتضايق في أوصاف المأمور به - ما تعاضل المأمورون به، فقد كان في البداية طليقاً عن أيَّة صفة إلّا أنه «بقرة» ثم لصقت بها أوصاف تلوَ بعضٍ ولِصْقَ بعضٍ حيث اثَّاقلوا عن تطبيقه طليقاً وتعاضلوا، وهذه بلية ربانية يبتلي بها المتعنِّتون ولا ينبئك مثلُ خبير.

ورجوع ضمائر التأنيث إلى البقرة الأولى الطليقة لا يقيّدها لأول الأمر، فإنما القيود آتية تلوَ بعضٍ والبقرة هي جنس البقرة، فـ ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ تعني أن المطلوب الآن بقرة... لا الأوَّل فإنها كانت دون قيود.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿رَبَّكَ﴾ هنا، دون «ربنا - أو - رب العالمين» - وقد كُرِّرت في ثالوث سؤالهم المنحوس - ذلك يشي بأنهم لا يزالون في ريبهم يترددون، وفي غيِّهم وعيِّهم يعمهون، كأن موسى هازئٌ بهم، أو أنه ينقل عن ربٍّ سوى ربهم، ويْكأن هناك أرباباً عدة هم متشاكسون في أوامرهم، ثم وهم أولاء يحترمون رب موسى أكثر من أربابهم، لذلك ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾!

ثم ﴿مَا هِيَ﴾ سؤالاً عن الماهية، إنه تجاهل عن أنها بقرة، وقد نص

عليها أوّل مرة، ثم مزايدة جاهلة قاحلة حول ماهية البقرة من حيث الكيان في عمرها، وكل أمرها، حيث الأسعار والفاعليات تختلف حسب مختلف الحالات والمجالات.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ جواباً عن الماهية الأولى ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ جواباً عن الثانية ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ وقد أمرتم أولاً في طليق الأمر، ثم زدتم عليه - تطلُّباً جاهلاً - مواصفاتٍ ماهوية ما كانت من ذي قبل إلّا أنها «بقرة» ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ دون مزايدة ومكايدة، حيث الأمر صريح لا إبهام فيه، لا يبقي مجالاً لأي سؤال!

ذلك تأكيد أكيد على واجب الوقوف لحدّ الأمر - أيّاً كان - بحدوده المذكورة معه أم دون حدود، مما يوضِّح أن «بقرة» كانت طليقة، ثم زيدت عليها قيود بأوامر أخرى جزاء بما كانوا يتعنتون.

والفارض - هنا - هي العجوز والبكر هي الشابة غير المضروب عليها بالفحل، و﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ هي الوسط بين هذه وتلك، وهو وسط العمر وكماله.

وقد تُسمّى فارضاً لفرض السِّن وقطعه، ولفرض الأرض وقطعها، ولفرض ما يحمّل عليها وقطعه من أشغال، فروض ثلاثة في الفارض، يجمعها طليق «فارض».

وتقابلها البكر، بكراً في العمر فما فرضته، وبكراً عن الحرث فما استُعملت له، وبكراً عن ضرب الفحل فما انضربت به.

إذاً فعوان بين ذلك يعني الوسط بينهما، لا متقدمة في العمر ولا حمولة وقد ضربها الفحل.

ولماذا ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفرداً مذكراً وكلٌّ من فارض وبكر مؤنث؟ علّه يعني ما ذكر من مواصفات.

ولقد كان في هذا وفي ما قبله كفاية لمن يصغي إلى الحق المرام، ولكن إسرائيل هي إسرائيل!.

فإلى لجاج ثالث، تضييقاً لدائرة الموضوع، علّهم ينجون عن أصله، أم يتأكدون أكثر وأكثر في أصله:

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

فكما أن الأثر علّه في ماهية خاصة من البقرة، كذلك علّه في لون خاص، وفي ذلك تجهيل لساحة الربوبية كأنه قاصر أو مقصر في البيان، وهم أحرى بالحائطة على أوامره تعالى!، ثم تعجيز له سبحانه، كأن الأثر في خصوص بقرة خاصة وليس من الله، فـ ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ﴾ بين مختلف الألوان ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ﴾ وهنا لا يكتفي بمطلق الصفرة تقريباً لمضايقتهم في خاصة الميِّزة، وقطعاً لمعاذيرهم في تساؤلات أخرى حول نوعية الصفرة، فهي - إذاً - ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ صادق الصفرة بمشبعها فالفاقع في الأصفر هو أشدّه وأشبعه وأنصعه، كما يقال: أصفر فاقع، وأسود حالك، وأبيض يقق، وأحمر قان، وأخضر ناضر.

﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ بلونها وسائر شمائلها، فلا هي مكسورة ولا عوجاء ولا قبيحة المنظر من ناحيةٍ أخرى، بل هي في مثلث الجمال والكمال، ماهية ولوناً وشكلاً، ولا يتمّ سرور الناظرين إلّا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة.

وقد تلمح ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ بعد ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أن فاقع الصفرة هو من أحسن الألوان وأنضرها فانظرها حسناً وجمالاً وكما يروى[1].

(١) نور الثقلين ١: ٨٩ في الكافي عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: من لبس نعلاً صفراً لم يزل ينظر في سرورها ما دامت عليه لأن الله عز وجل يقول: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩].

أتراهم اكتفوا بعدُ بهذه المواصفات؟ كلّا! فهم إسرائيل الحجوج اللجوج، إذ عادوا مرة أخرى هي الأخيرة - إذ لم تبق بعده مواصفة يتعنّتون بها - يسألون فيها عن ماهيتها مرة أخرى:

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

وهم في هذه المرحلة الأخيرة مسنِدون إلى بقاء التشابه في موضوع الأمر: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ وواعدون الاهتداء بها بمشيئة الله: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

ولماذا ﴿ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ دون «البقرة» المكررة هنا وهناك؟ علّه جنس البقرة مهما كانت أنثى، فليس أي جنس من البقر له ذلك التأثير، فليكن بقراً منقطع النظير لا مثيل له حتى يؤتى منه ذلك الأثر المنقطع النظير.

فهؤلاء الحماقى يفتّشون بعدُ عن بقرة خاصة لها خاصتها هذه، متجاهلين أن الأثر كلّه هو من خالق البقرة وليس في البقرة نفسها، ولولا قولهم أخيراً ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لما بينت لهم آخر الأبد «والذي نفس محمد بيده لو لم يقولوا ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لحيل بينهم وبينها أبداً»[1] أترى أن الله لم يشأ اهتداءَهم حتى الآن؟ فهم إذاً معذورون! أم شاء؟ فتخلفت المشية عن الواقع! فما هو دور ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هنا إن كان لهم الاختيار؟.

لقد شاء الله اهتداءهم بشرعته لما أمرهم بما أمرهم فتخلفوا عنه عاصين، ولم يشأ حتى الآن اهتداءَهم تكويناً إذ هم لم يشاؤوا بسوء اختيارهم، فليس لـ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هنا دورٌ إلّا تكويناً لاهتدائهم إن شاؤوا هم أن يهتدوا وقد شاؤوه أخيراً لما عيوا وأيسوا عن مكرهم.

(١) تفسير الفخر الرازي ٣: ١٢٠ قال الحسن عن رسول الله ﷺ: . .

والمتورط في العصيان عليه التبرك بـ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لصقاً بمشيئته إلى مشيئة الله تعالى، ثم ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ قد تعني إضافة إلى هدي التطبيق لأمر الله، الاهتداءَ إلى بقرة تحمل كلَّ هذه المواصفات، ثم الاهتداء إلى معرفة القاتل في هذا البين، فقد يشاء الله - بما شاؤوا - اهتداءَهم إلى ذبحها، ثم لا يشاء اهتداءَهم إلى القاتل أن يضربوا المقتول ببعضها، أم لا يشاء اهتداءَهم إلى هذه البقرة الخاصة بعد ما شاء اهتداءَهم لائتمارهم جزاءً بما تعنتوا.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾:

فلم تَعُد هذه البقرة - إذاً - متوسطة العمر صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين فحسب، بل هي بقرة غير مذللة بإثارة الأرض وسقي الحرث، ثم هي مسلَّمة: خالصة اللون في الصفرة الفاقعة ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾ لا تشوبها علامة، ولا تمازج لونَها لونٌ آخر، كما هي مسلمة عن سائر العيوب:

وترى ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾ هي - فقط - إيضاح لـ «مسلمة»؟ وليس القرآن كتاب لغة! ومسلمة اللون - طبعاً - ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾ إذاً فهي توضيح للواضح!

قد تعني ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ عن كلّ العيوب ومنها ﴿شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾ ومسلمة عن آثار العمل، ومسلمة عن الحبس للعمل وعن كلّ نقص متصور لبقرة، أم ومسلَّمة من والد إلى ولده البارّ به جزاءَ برِّه، أمّا ذا من مسلمات في بقرة.

﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ وَيْكأنه قبل الآن كان جائياً بالباطل من ربه، وَيْكأن الله ما كان يعرف ما عرفوه ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ نكراناً لأن يؤثر ذبحها في التعرف إلى القاتل، وتماسكاً عن دفع مال في ذلك المجال، وتمنعاً عن ذبحِ بقرة ولهم سابق العبادة لها، وذلك الثالوث المنحوس كان يمنعهم عن ذبحها لولا سؤلهم المدقع في التعرف إلى القاتل، أم وليجربوا موسى في الإجابة عن سؤالهم!